جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

البيئة العمرانية للمدينة العربية الاسلامية ودورها في الوقاية من الجريمة

الدكتور المهندس علاء الدين لولح

الرياض

1413 هـ - 1993 م

البيئة العمرانية للمدينة العربية الاسلامية ودورها في الوقاية من الجريمة(*)

الدكتور المهندس علاء الدين لولح

المقدمـــــــة :

إذا دققنا النظر في التاريخ الحضري وفي الاكتشافات الأثرية التاريخية لرأينا بأن الحياة الحضرية تعود الى عصر بعيد يعود على الغالب الى ٦٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، تركز معظمها في بلاد ما بين النهرين وحوض وادي النيل وسهول الأناضول، وقد بينت تلك الاكتشافات عن أنواع من أنماط الحياة التي كانت سائدة آنذاك والمرتبطة بنوع من النشاط الاقتصادي يختلف عما كان عليه الحال في شكل الحياة البدائية التي ارتبطت بالرعي والصيد، أو القنص وما الى ذلك.

أما إسم المدينة الاسلامية فقد ارتبط بالدين الاسلامي، وكانت المدينة الاسلامية تستمد طابعها الخاص والمميز من الاسلام نفسه باعتباره أسلوباً للحياة، فضلاً عن كونه عقيدة، وبذلك فهو يصبغ الحياة كلها بصبغة واضحة متميزة هي التي نسميها بالاسلامية، وهذا يعني بأنه لابد من وجود معالم معينة في المدينة

(*) ألقيت هذه المحاضرة بمقر المركز بتاريخ ٢٨ ذي الحجة ١٤٠٦هـ الموافق ٢ سبتمبر ١٩٨٦م.

العربية تعطيها ذلك الطابع الاسلامي وتميزها عن غيرها من المدن، وهي معالم وملامح قد يكون بعضها مادياً محسوساً وبعضها الآخر ملامح ومعالم معنوية أو نوعية تتعلق بأنماط السلوك والقيم والعلاقات الاجتماعية بين السكان.

ولست هنا بصدد تحليل وبيان صيغ الحياة الاجتماعية ومقوماتها ودراسة أنماط العلاقات التي عن طريقها تنتظم الحياة الاجتماعية الحضرية بكل مظاهرها ومكوناتها على الرغم من أهمية هذا الموضوع في التعرف على المجتمع وتحليل الروابط بين أفراده وجماعاته، بعيداً عن الأسس والمعايير والنظريات التي وضعها علماء الاجتماع الغربيون في دراسة المدينة الاسلامية وعلى الرغم أيضاً من فائدته في دراسة السلوكية العامة للمجتمع الحضري وتقصي هذه السلوكية في الوقاية من الجريمة، فهو بلاشك جانب هام وواسع أتركه لعلماء الاجتماع والمؤرخين والكتاب فهو مجالهم الخصب وينبوع عطائهم السخي والوفير، وقد كتب في هذا المجال الشيء الكثير، ومع كثرة ما كتب فإن ذلك لم يعط المدينة الاسلامية حقها من الوصف ولم يوفيها ما تستحق من الدراسة والتحليل.

وسوف تقتصر دراستي في هذا البحث على توضيح الاحتياطات الأمنية في المعالجة الفيزيائية للبيئة العمرانية للمدينة الاسلامية وتأثير الحيز العمراني على السلوكية العامة للمجتمع الحضري.

وكنقطة بداية لهذه الدراسة أجد لزاماً علي أن أذكر بأن البيئة الهيكلية للمدينة العربية الاسلامية قد كانت كاملة ومتكاملة تعبر عن

جانب كبير من التنظيم، وأن مظاهر هذا التنظيم إنما كانت تتجلى في أشكال المؤسسات المختلفة والتنظيمات الرسمية وغير الرسمية التي كانت سائدة في المجتمع الحضري في مراحل التاريخ الاسلامي.

ففي المدينة العربية ـ كما في غيرها من المدن الاسلامية ـ كانت توجد تلك المؤسسات بأشكالها المختلفة بهدف تنظيم الحياة الاجتماعية وضبط العلاقات العامة وتحديد ومراقبة سلوكية الأفراد والمجموعات وتنظيم قضايا الأمن والحماية ورعاية أمور الناس وحل مشاكلهم وخلافاتهم .. وما الى ذلك، مما تتطلبه الحياة الشريفة المستقيمة، مستندة بذلك على أحكام الاسلام وتعاليمه.

وقد أسهمت تلك المؤسسات في تدعيم شخصية المدينة العربية والمحافظة على كيانها ووجودها، وقامت بدور فعال في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية وهذا يعني بأن المدينة الاسلامية لم تكن تفتقر الى وجود جهاز من التنظيم الحضري الفعال، وإن كان هذا الجهاز يختلف بطبيعة تكوينه عما كان عليه الحال في المدن الأوروبية مثلا، ولكنه كان يقوم بنفس الوظائف.

فلقد كان الدور الذي تلعبه المساجد والمدارس الدينية والزوايا والطرق الصوفية والتنظيمات الحرفية من أهم ما يميز المدينة الاسلامية، وكانت كلها تتمتع بمكانة عالية بحيث لم يكن بالامكان تجاهلها أو الاغفال عنها، ومن هنا فإنها كانت تقدم الهيكل العام للحياة الحضرية بحيث نجد أن كل ما يتخذ من قرارات تكتسب شرعيتها عن طريق المسجد، كما أنه عن طريق تلك التنظيمات كان

الرجل العادي يشارك في الحياة ككل.

بل إن العلماء، وعلماء الدين كانوا يرتبطون في معظم الأحوال بالأعيان مما كان يعطي المدينة أو المجتمع الحضري في العالم الاسلامي كله ذلك الطابع المميز الذي نسميه الطابع الاسلامي.

لقد كان لتلك المؤسسات والتنظيمات دورها الفعال في تنظيم الحياة الاجتماعية وآثارها الكبيرة في تقويم الشذوذ والانحراف وتصحيح الاعوجاج ومعالجته حيث وجد، وتحقيق العدالة الاجتماعية وتنظيم التعامل بين الناس عن طريق التطبيق العملي لتعاليم الدين الحنيف، فهذا يشكل الجانب التشريعي الاساسي الذي أتى به الاسلام كدين تجاوزت تعاليمه الناحية الروحية لتنظيم الحياة الاجتماعية في كافة المجالات وعلى جميع الأصعدة وتهتم بكافة مرافق الحياة ومستلزماتها المادية والروحية.

وقد كان لهذا الجانب أثره الكبير في منع الجريمة والوقاية منها والحد من المخالفات وانتشار الفوضى بفضل أحكام الاسلام المحددة وتعاليمه المنظمة للعلاقات الانسانية المستمدة من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله الكريم (ﷺ).

بهذه المقدمة أكتفي بالاشارة الى البنية الهيكلية للمدينة العربية الاسلامية من حيث تكويناتها التنظيمية الفاعلة في الحياة الحضرية، والتذكير بدور التشريع والقانون في تنظيم الحياة وحماية المجتمع من كل عبث أو فوضى وهذا يمثل بحثاً قائماً ومستقلاً في حد ذاته يمكن تفصيله وتحليله ودراسته، وتقصيه في الزمان والمكان والمجتمع

واستنباط الدروس والعبرة منه، والتعرف من خلاله على أنماط العلاقات الاجتماعية السائدة، والسلوكية العامة التي كانت تحكم المجتمع الحضري وآثار ذلك في حماية الحياة العامة والوقاية من الجريمة والانحراف.

ولكي أبدأ باستعراض التكوين الفيزيائي للبيئة العمرانية للمدينة العربية الاسلامية وبيان مدى تأثير الحيز العمراني على السلوكية العامة التي كانت تحكم المجتمع الحضري، لابد من التذكير بالعلاقة الدائمة بين الحيز بشكله المادي الملموس والمعنوي المحسوس وبين الانسان الذي يعيش في إطاره وتحت تأثيره، فهي من الأمور المسلم بها، وقد لا يدركه الانسان كمبدأ أو كنظرية بقدر ما يعيشه ويتفاعل معه، ومن المفروض أن يكون ذلك الحيز على مستوى عال من الصدق في الصياغة والتكوين بحيث يغلف بشكل بارع خطى الانسان داخله ويعبر عن فعالياته وأنشطته ويسهل عليه القيام بوظائفه الفيزيولوجية والبسيكولوجية، فإذا صيغ الفراغ كذلك فإنه يحقق الهدف الذي صيغ من أجله، والاَّ فتكون له نتائج ومؤثرات أخرى تنعكس عن المستعمل.

فإذا سلمنا بقول أحد الفلاسفة (نحن نصوغ الفراغ والفراغ يصوغنا) لأدركنا أن هذا إنما يترجم العلاقات التبادلية بين الانسان وبيئته المعمارية والعمرانية والطبيعية وإن صياغة الحيز لا تقتصر على معالجة الشكل المادي بل تتجاوزه لصياغة سلوكية معينة داخلة، ولا تقف عند حدود تأمين وظيفة مادية معينة، بل تتجاوزه لتحقيق الوظائف النفسية والمعنوية وتوفير الشعور بالراحة والرفاه والتلاؤم بين

المحتوى والمحتوى، ومن هنا تأتي أهمية الدراسات البسيكولوجية والسلوكية والاجتماعية في تصميم البيئة العمرانية والمعمارية، وتحديد نوعية الحياة ورسم العلاقات بين الأفراد والجماعات في البيئة الواحدة، وهذا أمر نلح عليه في تعليم قواعد التصميم المعماري والعمراني وفي خلق الوسط والبيئة العمرانية لشريحة اجتماعية معينة أو لمجتمع المدينة بكامله.

فاللون والمادة والمقياس وتوزيع الظل والنور والاغلاق والانفتاح والعزل والتهوية والزخرفة والماء والخضرة وغيرها هي عناصر أساسية في تكوين الحيز تُسخر جميعها لخدمة الانسان وتأمين راحته الفيزيولوجية والنفسية في بيئته المعمارية وضمن محيطة العمراني.

وإنني لأبغي من استعراض هذه المقدمة لما سيأتي من البرهان على فاعلية الفراغ في ايحاء سلوكية معينة في استعماله والتأثير على نفسية المستعمل، وهناك العديد من الأمثلة التي تؤيد ذلك، ونذكر من هذه الأمثلة البيئة العمرانية والمعمارية للمدينة العربية الاسلامية، كأحد الانجازات الحضارية الهامة، حيث جاء تكوينها الفيزيائي محققاً ومستجيباً لكافة المتطلبات الحياتية للانسان وقاسماً مشتركاً لعوامل الدين والمناخ والمجتمع والأمن.

فإذا ما أخذنا بالدراسة والتحليل المخطط العام للمدينة العربية الاسلامية لتبين لنا بأن عامل الأمن بكل ما تعنيه كلمة الأمن من معاني الاستقرار والحماية والخصوصية والطمأنينة هو عامل أساسي

وهام في تكوين المدينة العربية الاسلامية، وبموجبه ينتظم شكل المدينة على نحو يترجم أهمية هذا العامل .. ويمكن للمرء استنتاجه واستخلاصه من الشكل العام للمدينة وعلى مقياس مكوناتها المختلفة ـ العامة منها والخاصة ـ بدءاً من خليتها البنيوية الأولى وهى المسكن.

فالمسكن العربي في حد ذاته هو تكوين فراغي صيغ بعناية ليستجيب لعوامل الدين والمجتمع والمناخ والأمن، بمعنى أن الشكل المعماري للمسكن قد جاء نتيجة ومحصلة لتفاعل تلك العوامل وقاسماً مشتركاً لها جميعاً.

فهو بتكوينه المغلق من الخارج والمنفتح الى الداخل بشكل واسع إنما يجسد اعتبارات الدين والمجتمع، حيث اعتبر الاسلام البيت حرمة في نظره لا يمكن خرقها، وحرم لا يمكن تجاوزه الاَّ بعد إذن أصحابه، فحدد بذلك العلاقة بين المسكن وبين الشارع، وهذا ما يفسر اغلاقية الشكل الخارجي وانفتاح المسكن فقط على السماء في فنائه الداخلي.

إن إغلاقية الشكل على المحيط الخارجي إنما تعكس أيضاً عامل المناخ، فإن التكوين المعماري للمسكن العربي هو تكون عضوي يعكس القدرة الكبيرة على التأقلم على المناخ.

وأخيراً فإن الاغلاق على الخارج قد جاء تلبية لعامل الأمن والحماية واحتفاظاً أمنياً للوقاية من احتمالات الاعتداء أو السرقة.

وما المداخل المنكسرة للبيت العربي الاَّ طريقة لحماية الداخل

والحفاظ على خصوصيته، إن عامل الأمن هذا هو عامل مشترك في العمارة العربية الاسلامية حيثما كانت، لا تقتصر فقط على البيوت ذات الفناء الداخلي التي تشكل القسم الأعظم للسكن في البيئة العمرانية الاسلامية، بل يشمل أيضاً العمارة اليمنية المنفتحة على المحيط الخارجي والتي تخلو من فكرة الفناء، حيث أن قاعدتها المتصلة مع الشارع هي مغلقة وحصينة لتحقيق الأمان والأمن لسكانها.

ونستطيع أن نبرهن على فعالية عوامل الدين والمجتمع والأمن وانعكاس ذلك على الشكل الخارجي بالاغلاق، بالأمثلة التي تقدمها مساكن المسلمين في مناطق من العالم كشمالي الهند مثلا حيث المناخ الشديد الرطوبة لا يسمح بتطبيق فكرة الفناء الداخلي الذي أوجد بالأساس لتأمين جو من الرطوبة والخفرة كحل بيئي للبيئة الصحراوية الجافة خارج المسكن.

إن فكرة استخدام الفناء في هذه الرقعة الجغرافية الرطبة لا يمكن تفسيره الاَّ كاحتياط أمني يمثل حرص المسلم على تأمين الحماية اللازمة لبيته والحفاظ على خصوصية الحياة فيه وتحصينه من احتمالات العدوان والسرقة وذلك على الرغم من عدم انسجامه مع المناخ ومما قد يسببه ذلك من صعوبات على التأقلم لسكانه.

وهكذا تتشكل شوارع المدينة ودروبها وممراتها حيث تحيط بها جدران عمياء تكاد تخلو من الفتحات في مستوى الطابق الأرضي، وتنتشر هذه الدروب انتشاراً عفوياً سلساً، مشكلة شبكة تغطي كافة أرجاء المدينة، وقد شبهها «كيتون» في دراسة لمدينة حلب بأقنية المياه

التي تفصل بين الجزر المعمورة في مدينة البندقية معلقاً على عضويتها وعفويتها.

إن هذه الجدران العمياء التي تحدد تلك المسارات والطرق تمثل سداً يصعب اختراقه فهو احتياط أمني لحياة الداخل وحيز أمين لا يسمح ولا يسهل الاعتداء أو السرقة أو استراق الأنظار نحو الداخل.

إن هذا الاغلاق ليغلف بشكل صادق حياة الداخل ويؤمن عنصر الأمان لسكانه حيث يمارسون حياتهم فيه بكل حرية وطمأنينة، وإن هذا الشعور بالأمان والطمأنينة هو تأثير معنوي ونفسي توحيه طبيعة تشكيل الحيز وتنظيم الفراغ في المعالجة العمرانية للمدينة العربية الاسلامية.

وبهذا فإننا نستطيع القول بأن تشكيل البيئة العمرانية للمدينة العربية كان على نحو تحقيق أمنها وحمايتها، فقد كانت الجدران الخارجية للمدينة العربية الاسلامية المعروفة بالأسوار تغلف في داخلها نظاماً من الجدران المغلقة على نفسها بمقياس عمراني متسلسل ينتهي أخيراً بخلية مغلقة بدورها على نفسها وهي المسكن.

وهكذا وفي كل مكان من المدينة العربية يوجد المرء داخل نظام محدد من العلاقات ضمن حيز مغلق، وبالخروج من ذلك الحيز لا يمكن له الاّ أن يدخل حيزاً مغلقاً مجاوراً، فبمجرد الانتقال من حيز المسكن الذي يمثل عالماً مغلقاً بالنسبة لمحيطه الخارجي كما أوردنا، باعتباره وحدة التكرار في نسيج المدينة العربية الاسلامية أو بمجرد

الخروج منه الى المحيط المجاور مباشرة، فإن المرء يجد نفسه محدداً بحيز مغلق يمثل مجموعة من البيوت تربطها دريّبة أو زقاق، وتجمعها صلة القرابة أو النسب أو الانتماء الى معلم حرفة أو زعيم طائفة، ويعتبر هذا المجتمع عالماً مغلقاً ومحمياً وأميناً هو الآخر لأنه ينفصل عن محيطه الخارجي ببوابة لا يمكن دخولها الاَّ من قبل ساكنيها أو من معارفهم أو أقاربهم . .

وهكذا نستطيع أن نستنتج بأن البيت هو عبارة عن مكان مغلق ضمن محيط مغلق، وهو حيز محمي ضمن إطار ـ محمي ـ وآمن ضمن بيئة آمنة، وهذا أمر انفردت المدينة العربية الاسلامية والعمارة العربية الاسلامية في تحقيقه دون غيرها من التجمعات الحضرية الأخرى في التاريخ.

وإذا تابع المرء وبشكل تسلسلي خروجه من محيط آخر مجاور ومن بيئة الى بيئة أكبر، فإن مبدأ الاغلاق والحماية نفسه مع اختلاف مقياس الشريحة العمرانية، فالحارة تغلق أبوابها على الحي، والحي يغلق أبوابه على نفسه، وهكذا حتى يعم هذا الاغلاق المدينة بكاملها ويعم معه الأمن ليغطي كافة أرجائها، إن هذا النظام من الجدران التسلسلية الاغلاق، هو نظام أمني وقائي يتحكم بشكل الحياة في أحياء المدينة ويضع صيغاً للعلاقات بين الأفراد والجماعات، ويمكن تجاوزاً تشبيه هذا النظام من حيث التشكيل والترتيب بحلقات دفاعية في تكوين دفاعي متسلسل، الاَّ أن مهمته في حالة المدينة العربية الاسلامية لم تكن لمقاومة جيش غاز بقدر ما كانت تهدف لتحقيق عنصر الحماية والأمن وتعني بتأمين الحرمة والخصوصية لسكانها.

فعندما تغلق المدينة أبوابها فإن وظيفة هذا النظام من الجدران المغلقة تسهل مراقبة استتباب الأمن والنظام داخل المدينة وحمايتها ضد العابثين والمخربين واللصوص، أو تجنيبها مما قد يسببه التائهون في طرقاتها من توتر وفوضى، وبموجب هذا النظام تنقسم المدينة الى أحياء أو الى جزر سكنية لتسهيل عملية الأمن والحماية والمراقبة بعدد محدود من المراقبين والموظفين.

وقد جاء التكوين العمراني للطرق والدروب والأزقة ملائماً ومسهلا للأمن والحماية في المدينة ـ كما أوردنا ـ فإن تشكيلها الخاص ينبه الغريب التائه فيها حينما يجد نفسه أمام دروب أو أزقة مقفلة تعيده الى مساره الأصلي الذي يقوده بدوره الى أبواب المدينة أو الى فندق أو خان حيث يقضي ليلته دون أن يختلط بسكان الأحياء والحارات، وهذا يؤكد بطبيعة الحال التأثير السلوكي الذي يفرضه الحيز على العبور، بفضل صياغته العمرانية المميزة.

لقد استند تشكيل المدينة العربية الاسلامية على مبدأ فصل العام عن الخاص، بمعنى فصل المناطق ذات الاستخدام العام عن المناطق السكنية بهدف تحقيق الأمن والعزل للمسكن وحمايته من الضجيج والحفاظ على حرمته وخصوصيته، فرسم حدوداً لحركة الغرباء داخل المدينة، لا تتجاوز المنطقة المركزية العامة، فمنطقة الأسواق نفسها هي منطقة مغلقة على نفسها تسمح للغريب بالتجول في أرجائها ولكنها لا تسهل له العبور الى المناطق السكنية المجاورة بسبب التباين في التكوين الفراغي وتشكيل البيئة العمرانية في كلا

المنطقتين، ونستطيع أيضاً أن نلمس في هذه المنطقة المركزية من المدينة نظاماً تسلسلياً في الاغلاق ينتهي بالقيصرية أو بالخان الذي هو عبارة عن حيز في حد ذاته.

فالقيصرية هي عبارة عن سوق نوعي مغلق من الخارج ببوابة محكمة ومنفتح الى فناء داخلي، بهدف حماية البضائع الثمينة داخله في الدرجة الأولى وتحقيق الأمان للتاجر، وكذلك الأمر بالنسبة للخان، أما الأسواق النوعية الفرعية كسوق الصاغة والسجاد والنحاس وغيرها فهي أسواق محمية بواسطة بوابات تنغلق على المسارات الرئيسة لتحقيق الحماية والأمن لمحتوياتها.

ونستطيع أن نتبين أيضاً الاحتياط الأمني عن طريق تشكيل الأسواق نفسها التي تمثل معرضاً مستمراً للبضائع، في العلاقة بين الانسان والمخزن، بين الخارج وبين الداخل حيث تمثل هذه المخازن حيزاً داخلياً لا يمكن للمرء الدخول اليه الاَّ في حال دعوته.

كما نستطيع أن نتبين عامل الأمن والحماية في شكل أبواب المدينة ذات المداخل المنحرفة والمضاعفة في الكثير من الحالات بخان حيث تجري فيه مراقبة البضائع ودفع الضرائب والرسوم مقابل الحفاظ على التاجر الغريب من أخطار المدينة.

وهكذا ـ كما رأينا ـ تبدو المدينة العربية الاسلامية وكأنها مجموعة من أحياء وحارات مستقلة لكل منها حياتها وفعاليتها، فهي كيانات حضرية مصغرة ووحدات جوار متكاملة، لكل منها سويقها

ومسجدها وزواياها وحماماتها ونظام سقايتها وادارتها، يتمتع كل منها بالأمن والاستقرار والخصوصية.

الآثار الروحية للبيئة العمرانية للمدينة العربية الاسلامية في تحقيق الأمن والوقاية من الجريمة:

لقد ذكرت في مستهل حديثي عن أهمية الجانب التشريعي والتنظيمي والاداري الذي يستمد أحكامه من تعاليم الاسلام والمنظم للعلاقات بين الأفراد والجماعات والمنظم لمسائل التعامل والتبادل بين الناس، فله دور كبير وأساسي في كبح الانحراف والشذوذ والجريمة والغش وتقويم سلوك الأفراد والجماعات عن طريق تنظيم المجتمع على شكل مجموعات حرفية وطوائف مهنية وزوايا صوفية تطبق تعاليم الاسلام وأحكامه في أعمالها وانتاجها وأفعالها وعن طريق المؤسسات الرسمية التي تعنى بمكافحة الغش والتخريب، كما كان عليه الحال في عملية التبادل في الأسواق، حيث كانت تتم وفق نظام خاص من المراقبة لتدعيم الأمن وتوطيد الاستقرار للحياة الاقتصادية، وقد تمثلت عملية الرقابة تلك في شخصية أمين السوق الذي كانت مهمته الأساسية التأكد من صحة الأوزان والمكاييل ومكافحة الغش والاستغلال، ثم توسعت فيما بعد لتشمل المدينة بكاملها لمحاربة الغش وحماية المارة، واحترام أصول ممارسة المهن والحرف المختلفة.

إذن فالنظام الاقتصادي في المدينة العربية الاسلامية كان على

مستوى عال من التنظيم والترتيب، حيث كان كل فرد في المدينة الاسلامية يشتغل بالانتاج الاقتصادي والحرفي والتوزيع والخدمات، ينتمي الى الطوائف الحرفية كل حسب حرفته أو مهنته ويعتبر أعضاء الطائفة الحرفية الواحدة أنفسهم أعضاء في الأمة الاسلامية قبل كل شيء، فلم تكن الرابطة التي تجمع بينهم هي أواصر القومية أو وشائج السلالة والدم بل كانت رابطة الايمان بإله واحد والانقياد له ليس باللسان فحسب، بل وفي جميع أعمالهم اليومية.

ومن هنا فإنه يمكن القول بأنه لم يكن هناك ثمة فاصل بين الدين والنشاط الدنيوي في الاسلام، والمسلمون سواسية أمام الله وأما شريعته.

إن الطبيعة التخطيطية للمدينة العربية الاسلامية تعكس بشكل كبير هذا الدور الاقتصادي والاجتماعي وتفرض تأثيراً روحياً خاصاً في التعامل بين الناس ففي وسطها يوجد السوق وفي قلب السوق يوجد المسجد الجامع، وهو رمز النظام يتحد بشكل متين مع النسيج العمراني للسوق، وهذا التزاوج بين الدين والدنيا وبين التقوى والربح، بين الروح والمادة، وهو ما نلاحظه في أسواق العديد من المدن العربية الاسلامية كفاس وتونس وحلب، يذكرنا بالقول المأثور عن الخليفة عمر: بأن الوئام يسود بين المسجد والسوق في كل الأمور.

وعلى مقربة من الأسواق توجد الفنادق ومخازن البضائع ومساكن التجار، وكان هذا هو قلب المدينة أما حولها فتأتي الأحياء السكنية.

إن المكانة التي كان يمثلها المسجد الجامع في الحياة الاجتماعية كانت بالغة الأهمية لأنه كان يؤدي وظائف كانت تتجاوز وظيفته الأساسية كمكان للعبادة، فقد كان مركزاً سياسياً وثقافياً واجتماعياً، وهذا يفسر مركزية توضعه في مخطط المدينة العربية الاسلامية واعتباره نواة تشكيلها، ويلعب موقع المسجد الجامع في قلب النسيج التنظيمي للسوق دوراً هاماً في توجيه سلوكية الناس في معاملاتهم وأعمالهم في منطقة السوق ويذكرهم بالرقابة الروحية المفروضة عليهم في تصريف أمورهم وتسيير شئون دنياهم وهو أمر بالغ الأهمية على صعيد السلوك الاجتماعي انفردت في مراعاته المدينة العربية الاسلامية دون غيرها.

كذلك فإن طبيعة التكوين العمراني للمدينة العربية الاسلامية تعكس شكل المجتمع وحالته ونمط العلاقات الاجتماعية فيه، لذلك فإن التكوين العضوي المتلاحم للمدينة العربية الاسلامية في طريقة تجميع بيوتها واتصالها واحتضانها لبعضها البعض، في هذا النسيج الكثيف المتماسك المتضامن في شكل كتلة عمرانية واحدة متآلفة يعكس حالة المجتمع العربي الاسلامي، ذلك البنيان المرصوص المتعاضد المتماسك المتعاون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن هذا التناسق بين المحتوى والمحتوى، إن هذه الوحدة العمرانية بين الشكل والمضمون تعود باجماع المؤرخين وعلماء الاجتماع الى الانسجام بين الفكر وبين المادة، وإن التنظيم الفراغي العمراني للمدينة العربية الاسلامية إنما هو تابع وخاضع لشروط الحياة التي تفرضها احتياجات الانسان المسلم المادية منها والروحية.

إن الدروب والمسالك في المدينة العربية الاسلامية كانت بالاضافة الى وظيفتها الأساسية في تصريف الحركة وتأمين المرور أمكنة عامة للتبادلات الاجتماعية، فكم من مكان رطب ظليل استوقف المارة فيه لتجاذب أطراف الحديث وتبادل وجهات النظر والحوار في أكثر من أمر أو مسألة، وكم من نافورة مياه أو سلسبيل كانت نقطة استقطاب وتقريب لأهل الحي يتذاكرون فيها شئونهم ومشاكلهم.

إن هذه المسالك الضيقة لتفرض سلوكية على المارة وتفضي شعوراً بالألفة والتعارف والتحابب فيما بينهم في لقاءاتهم وتعاطفهم وتزاحمهم فيها بالمناكب وتبادل التحية والسلام فيما بينهم، ففي دروب الحي ومسالكه يعرف الناس بعضهم البعض ويعرفون أنسابهم وانتماءاتهم، وبهذا يمكن تمييز الغريب والاشارة اليه ومراقبته واحباط نواياه، إذا كان يقصد الاساءة أو السرقة إو ارشاده الى هدفه في حال ضياعه.

إن هذا ليؤكد على انسانية المقياس العمراني في المدينة العربية الاسلامية ويبين إن كل عنصر من عناصرها إنما كان على قدر الانسان مادياً وروحياً ومحصلة لاحتياجاته وعواطفه،الأمر الذي أسهم في تأكيد الشخصية العمرانية المميزة للمدينة العربية وأضفى عليها الطابع الانساني وذلك بتحقيق التفاعل بين الانسان ومحيطه وتدعيم التعاطف والتعاون مع بيئته ومجتمعه.

وأخيراً فإننا نستطيع أن نستخلص معاً بأن الحيز الفيزيائي

للبيئة العمرانية للمدينة العربية الاسلامية قد جاء علاجاً لمشاكل الأمن ورداً مناسباً لمتطلبات الحياة الاجتماعية المستقيمة والشريفة لأنه ترجم وجدان المجتمع العربي الاسلامي وعبر عن سلوكيته وقيمه وأخلاقه.

في الختام أرجو أن أكون قد وفقت في عرض أفكاري واعتذر إذا أسهبت أو نسيت أو اطنبت أو كررت فإنني لم أوف الموضوع حقه في بحث أو محاضرة.

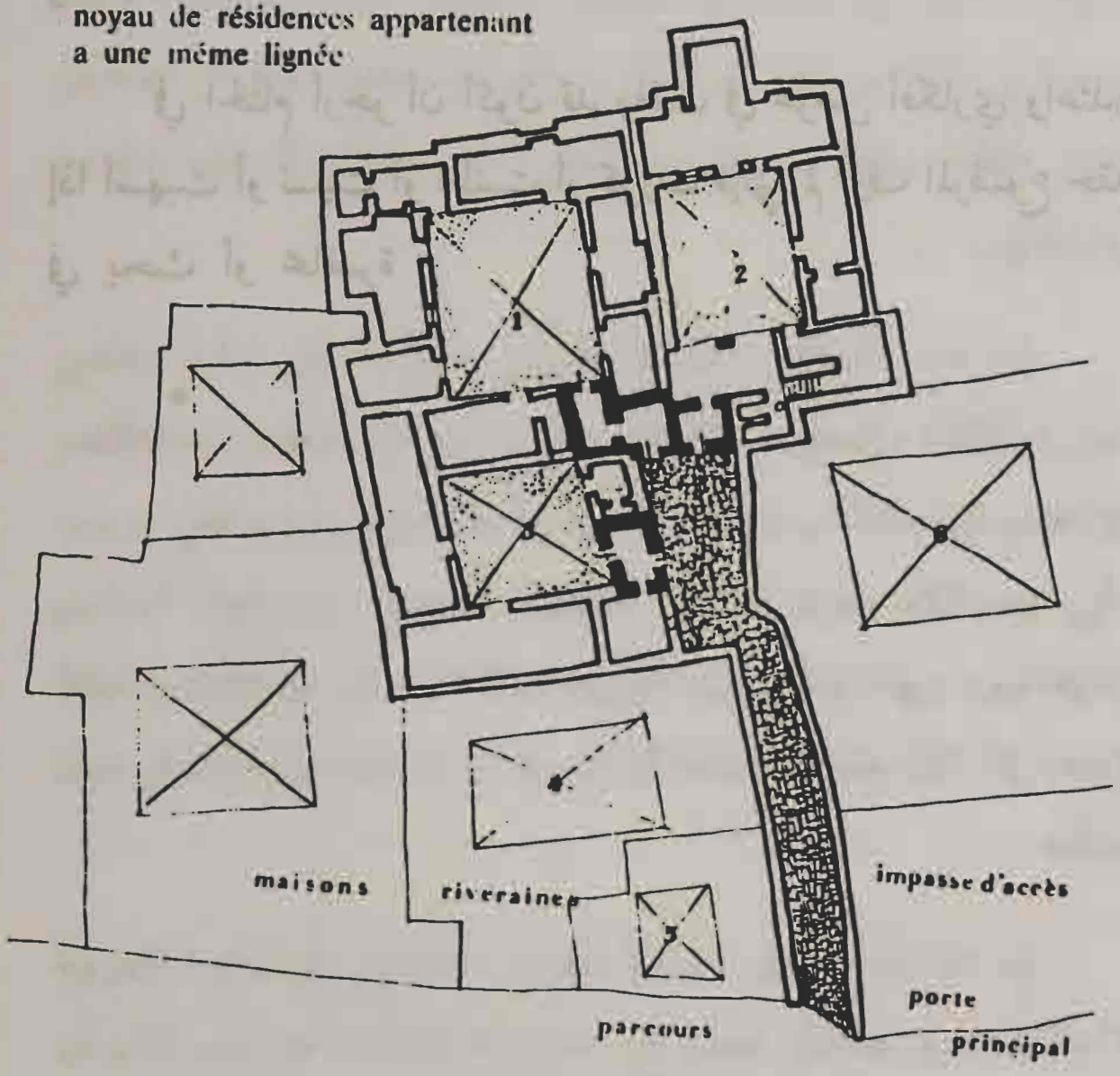

مجموعة من البيوت المجتمعة
حول زقاق - تونس.

Noyau intérieur de maisons, desservies par une impasse

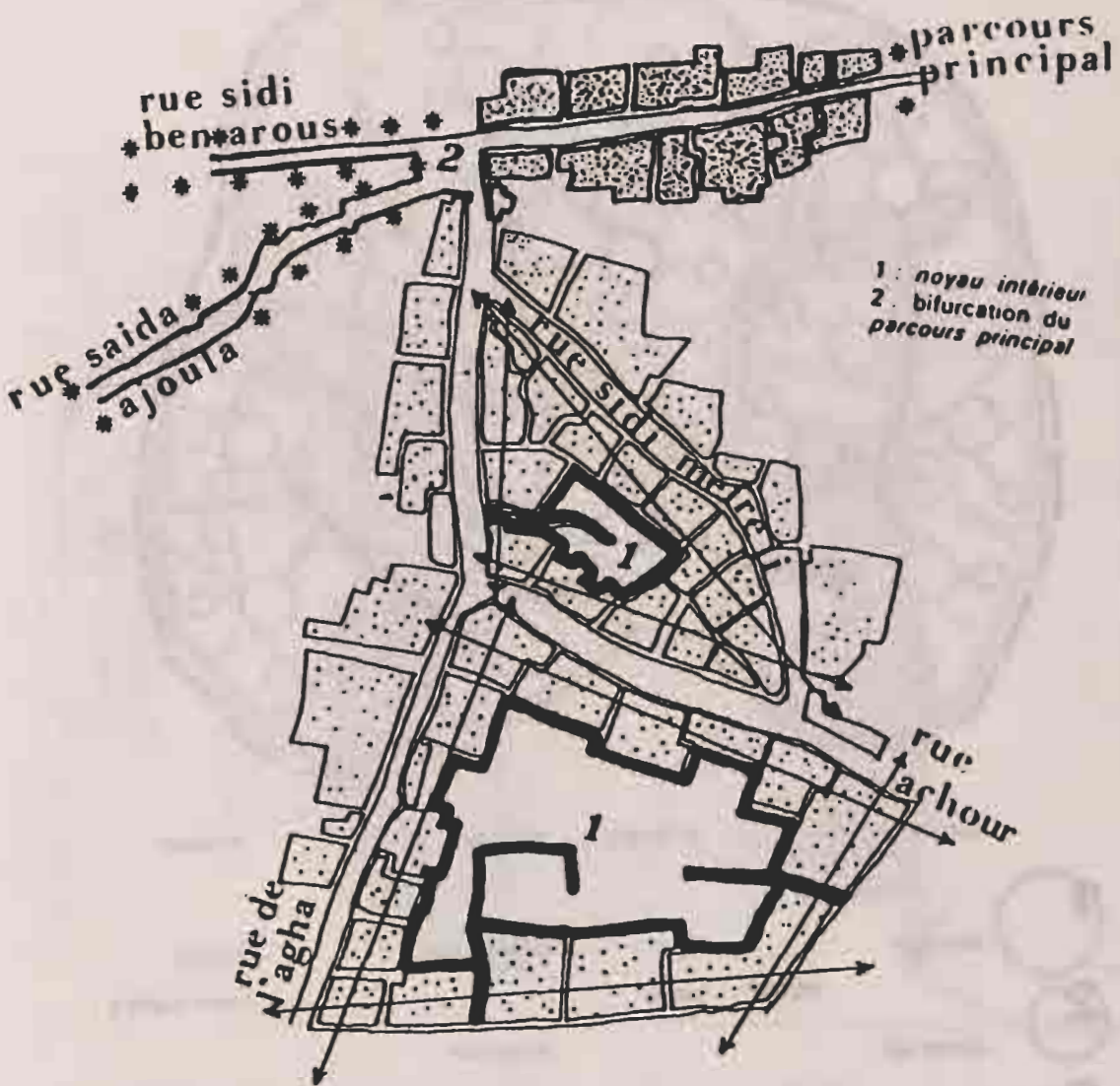

نظام الدروب والمسالك وبينه
المناطق السكنية ـ تونس ـ

Détail du systéme des réseaux de parcours
et de la structure des secteurs résidentiels

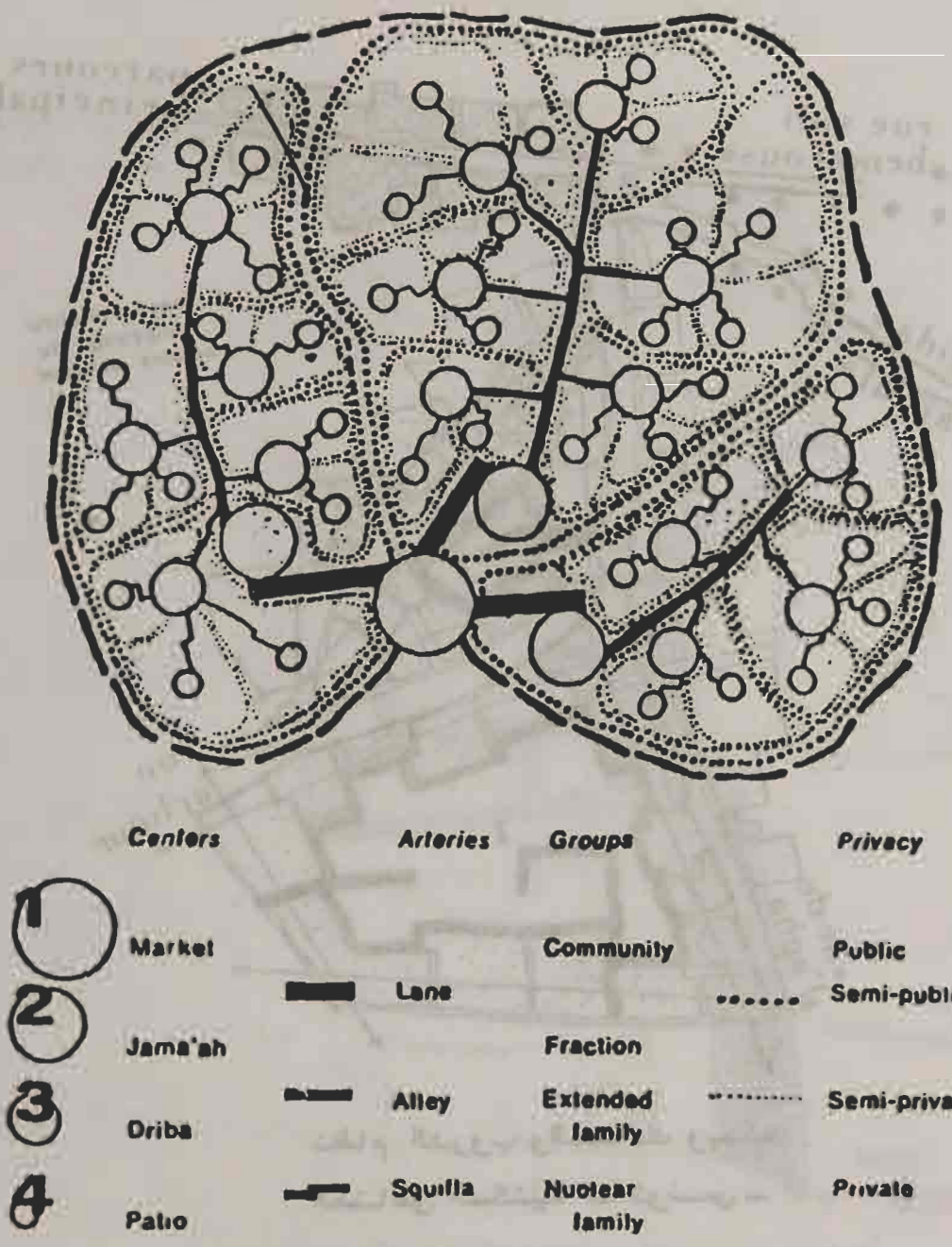

مخطط تحليلي يبين موضع الأحياء
وحدود الاغلاق فيما بينها.

· Shéma du cloisonnement des quartiers (d'après B. Delaval 1974, p.253)

· Shéma du cloisonnement des qu

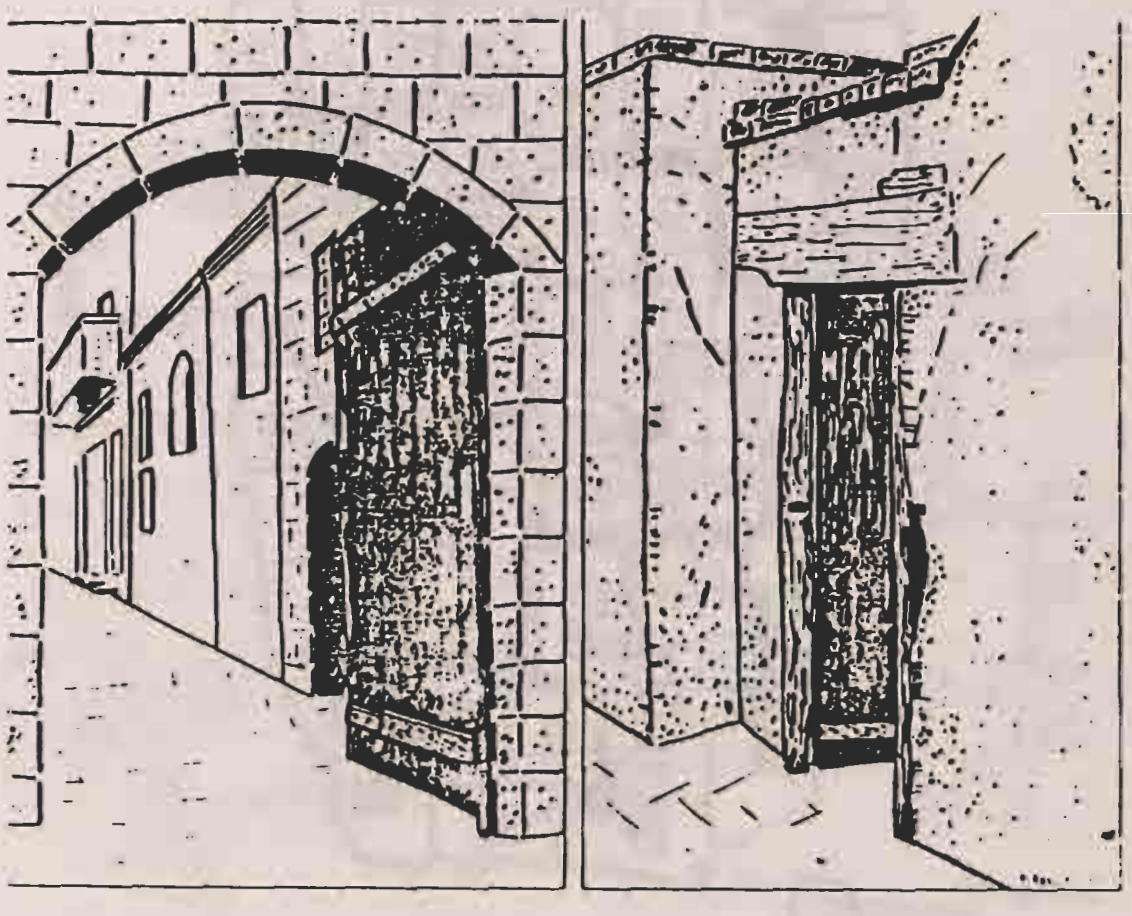

* بوابة أحد الأحياء ـ سمرقند.

: Porte d'un quartier encore en fonction à Samarcand

* بوابة أحد الأحياء ـ القاهرة.

Porte d'un quartier encore en fonction au Caire

مخطط لحي سكني يبين حرمه وخصوصية الفناء الداخلي.

Shéma d'un quartier résidentiel avec l'intimite des cours et impasses (d'aprés B. Delavat 1974, p. 254).

المخطط العام للمدينة القديمة بدمشق.

Damas : Plan des monuments de la ville ancienne.
En noir, les monuments historiques, cernés d'un trait les khans.
(Coll. M. Ecochard)

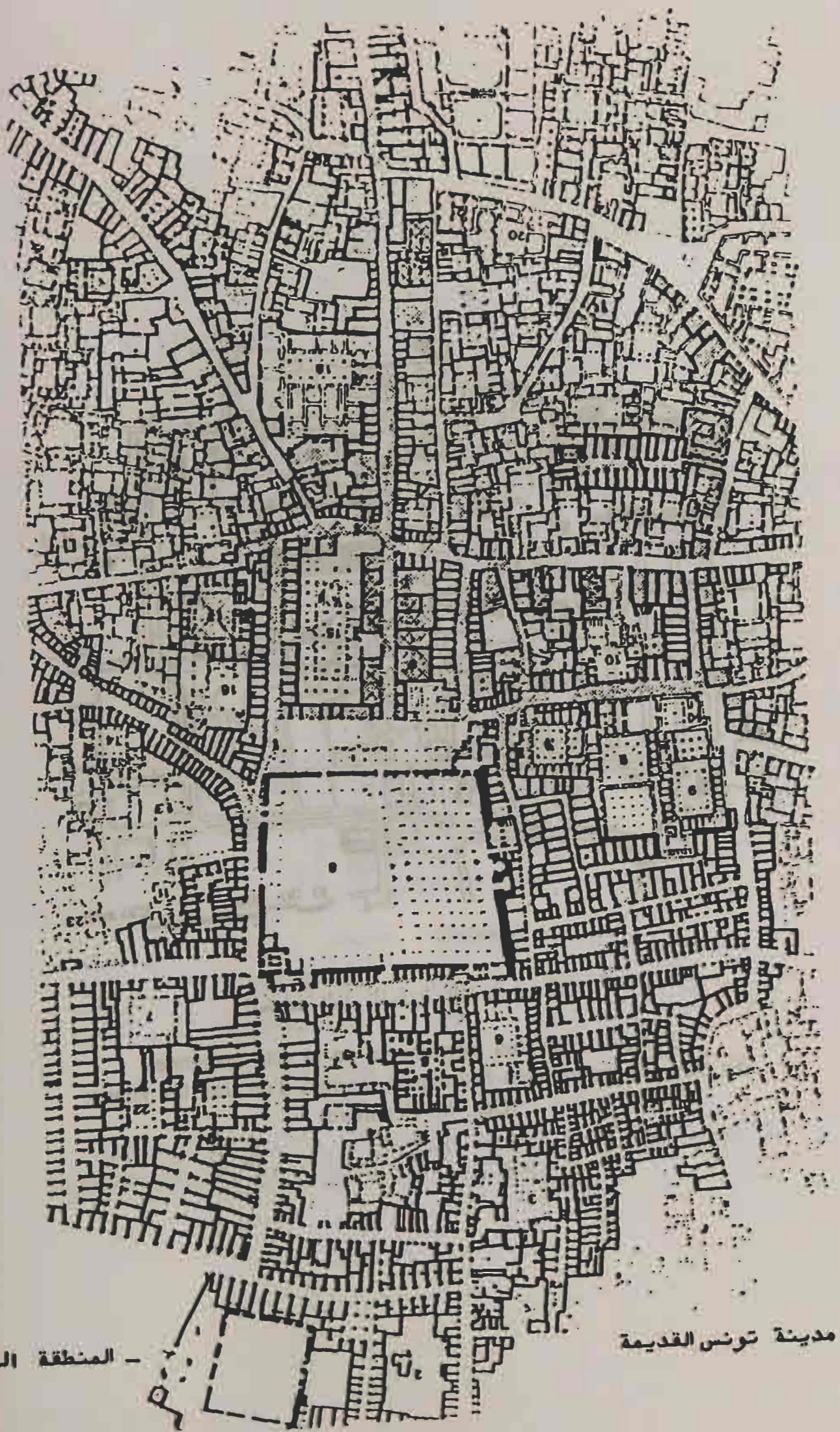

مدينة تونس القديمة

– المنطقة المركزية

تفصيل شريحة من أسواق تونس.

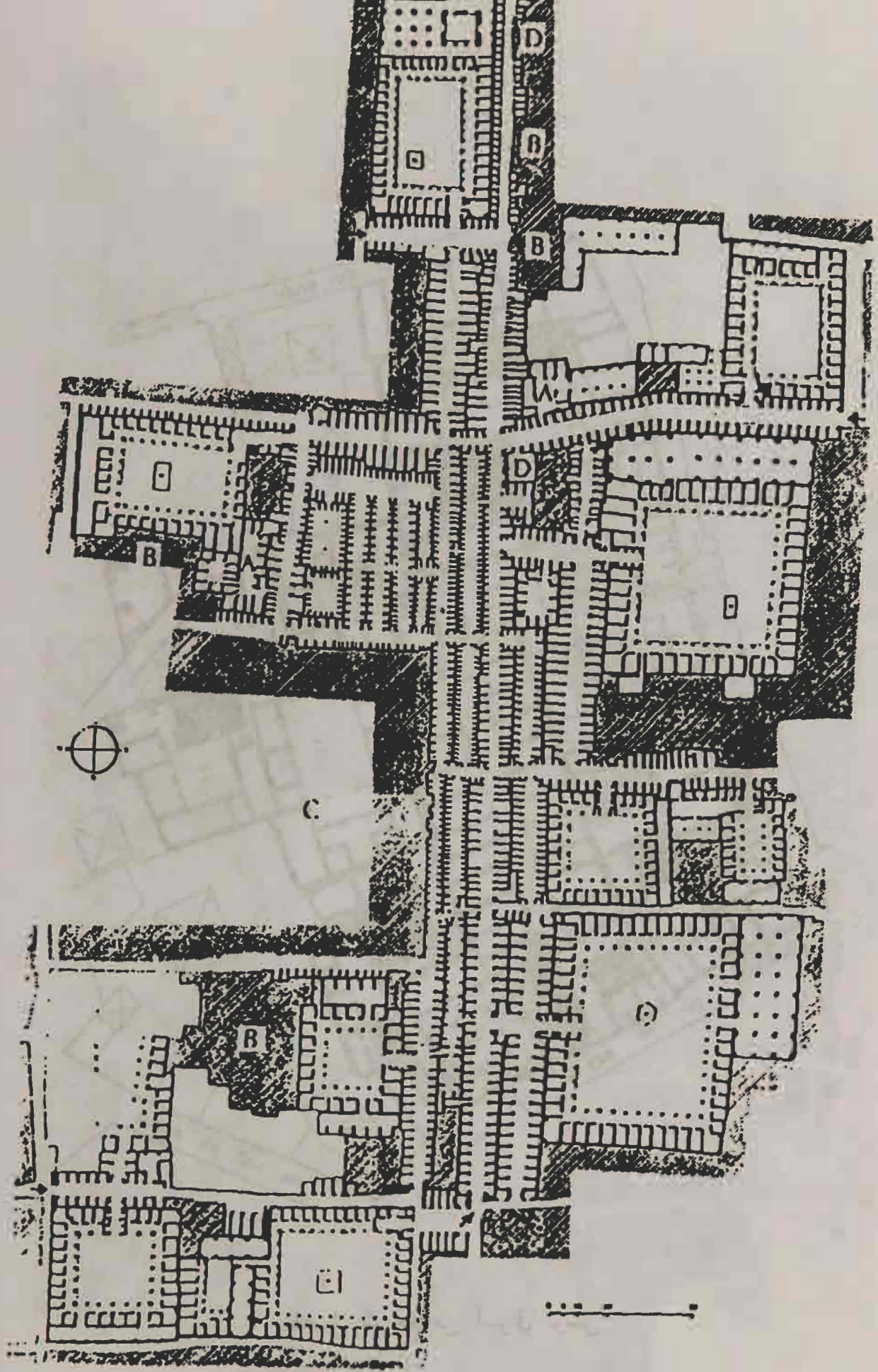

مخطط اسواق حلب لسوفاجيه

A ـ قيسارية.

B ـ مدرسة.

C ـ الجامع الكبير.

D ـ مساجد أخرى.

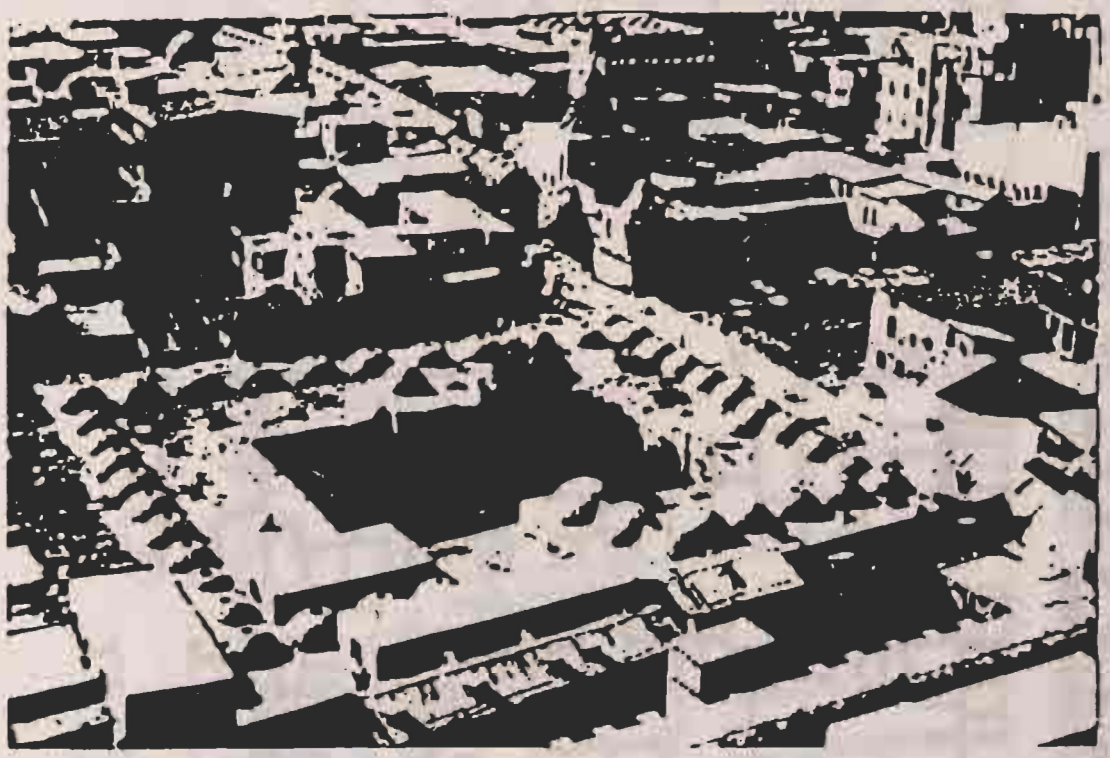

Damas : Khan el Harir. (Coll. M. Ecochard)

شريحة من أسواق حلب.

شريحة من أسواق حلب

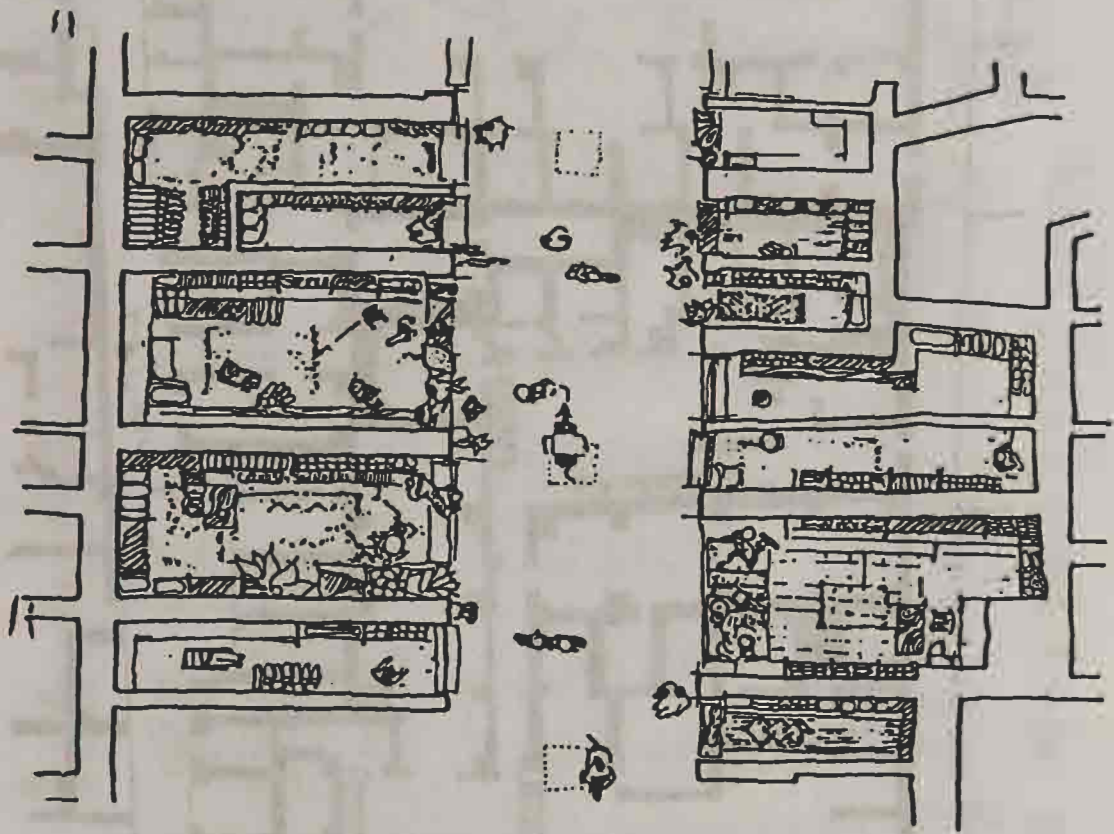

مسقط سوق الدهشة م: ١/١٠٠ حلب

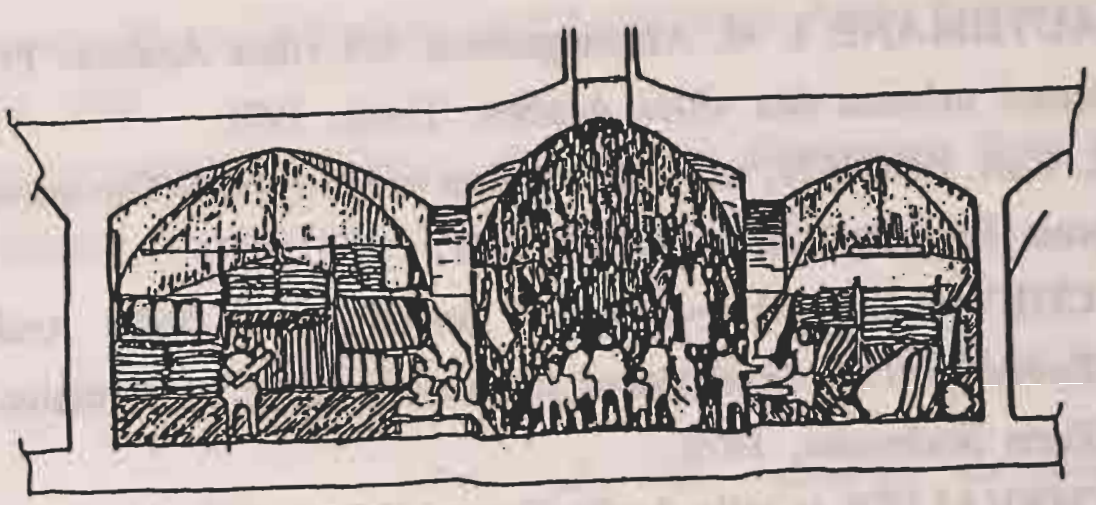

مقطع عرضي

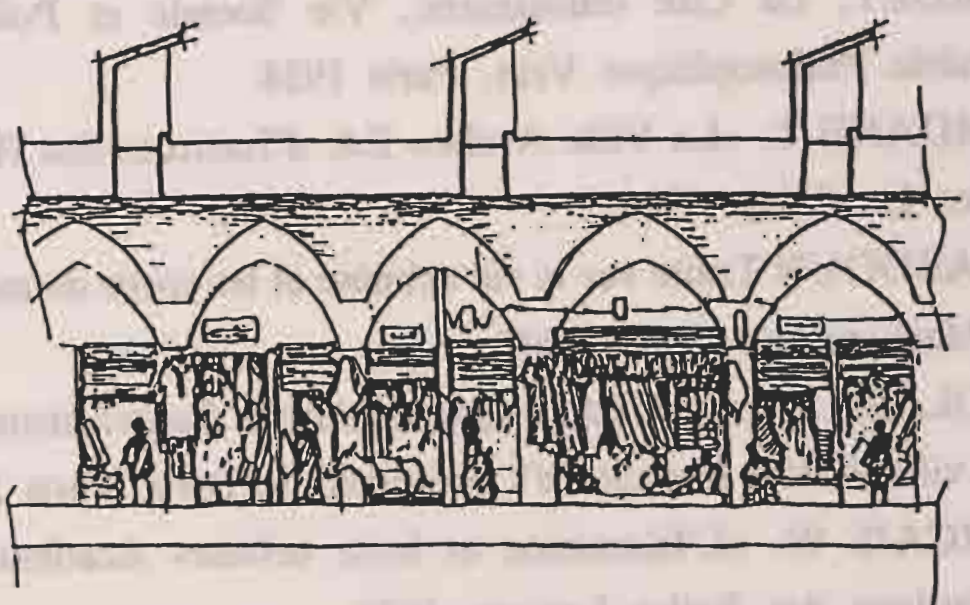

سوق الدهشة، مقطع طولي م: ١/١٠٠

- AUTHMANE I. «L'Amenagement des villes Arabes» Problemes urbains des villes Arabes, Tunis, 1971.
- L. Carl. BROWN, ed From Medina to Metropolis The drawing press Princeton, New Jersey 1973.
- CHEVALIER D. «L'Espace Social de al Ville Arabe» Publication du department d'Islamoloqie de l'Universite de Paris Sorbonne, 1979.
- CHEVALIER la ville Arabe Dans L'Islam. C.E.R.E.S Tunis C.N.R.S. Paris, Tunis, 1982.
- GARDET, La Cite musulmane, Vie Sociale et Politique Librairie Philosophique Vrin. Paris 1954.
- HAMDANE T. «La Ville Arabe» Ed. d'Institute des Hautes Etudes Le Caire. 1964.
- IBN ABDOUN Traite sur la vie urbaine et les corps de metiers Ed. Maisonneuve. Paris 1947.
- A. LOLAH Urbanisme contemporain dans le Centre historique de la ville Arabe Institute d'Urbanisme de Paris, Paris 1981.
- MARCAIS W «L'Islamisme et lavie urbain» Academiedes Inscriptions des Belles Letters, 1928.
- G. MICHELL ed. Architecture of the Islamic World, Its History, and Soical Meaning Thames and Hudson, LOndon, 1978.
- H. SAUVAIRE Description de Damas, Journal Asiatique-serie III-VII, 1894-1896.
- R.B. SERJEANT, Ed, The Islamic City UNESCO, 1976.

- Abdulak et Pierre BENON «La Maison en Pays Islamiques» Architecture d'aujourd'hui, 1973.
- BANNASI A. Le probleme de la vie ille ville dans les pays Arabes Revue periodique de l'Archeologie Arabe Syrienne T. 24, 1974.
- PETONNET S. Espace, distance, et dimensions dans une Societe Musulmane-L'Homme no. 2, 1972.

- عالم الفكر. المجلد الحادي عشر. العدد الأول. المدينة العربية. منشورات اليونسكو. مجلة رقم ٩٠٠.